

الأسس الفكرية للنقد الثقافي في طرح كل من ليتش والغدامي

The intellectual foundations of cultural criticism In the proposal of both Leitch and Al-Ghadami

صالح حوحو

¹ جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر)، s.houhou@univ-biskra.dz

تاريخ القبول: 2025/05/31

تاريخ الاستلام: 2024/10/28

DOI: 10.24327/ASJP.12345.2025.10.28.383-394

ملخص:

حاولت في هذا المقال؛ مناقشة موضوع على غاية من الأهمية وهو موضوع النقد الثقافي وأسس المعرفة عند الناقد الأمريكي ليتش والمفكر العربي محمد عبد الله الغدامي، فتناولت فيه مفهوم النقد الثقافي عند ليتش، ثم عند الغدامي، ثم جاء الحديث عن الانتقادات التي وجهت للغدامي من ناحية الفكر والمصطلح والمعالجة، وخُصّص المقال إلى الحديث عن المقولات الستة للنقد الثقافي. الكلمات المفتاحية: الإعلام؛ الاستشراق؛ التاريخانية؛ السلطة؛ ما بعد الكولونيالية؛ النقد الثقافي؛ النسوية؛ الهيمنة؛ الوعي واللاوعي المؤسسة المجتمعية.

Abstract

In this article, I tried to discuss a very important topic, which is the topic of cultural criticism and its cognitive foundations according to the American critic and the Arab thinker Muhammad Abdullah AL-Ghadami. In it, I dealt with the concept of cultural criticism according to Leitch, then according to AL-Ghadami, then the talk came about the criticisms directed at AL-Ghadami in terms of thought. Terminology and treatment. The article concluded by talking about the six categories of cultural criticism.

Keywords: ; consciousness and unconsciousness; cultural criticism; hegemon; Feminism; historicismsocietal institution power; media; post-colonialism Orientalism.

١. مقدمة

النقد الثقافي توجه معرفي حديث، وظاهرة نقدية ما بعد حديثة، ظهر في النصف الثاني من القرن العشرين، ناصب العداء للبلاغة القديمة ونظرية الجمال والبنوية، حيث أبعاد التقييم الجمالي عن النص الأدبي بشئ أجناسه، مستحضرا الأطر والأبعاد الثقافية، منطلقا نحو تأسيس منهج بديل ورؤيا نقدية مُعاصرة مُركّزا على النشاط الثقافي داخل العمل الإبداعي، مُتخذًا من الثقافة لشموليتها المرجعية الأساس التي تواكب قراءاته والكشف عن أنساقه؛ وهو بهذا يضع الناقد في مجال واسع مفتوح ما استوجب التقاطع مع جملة من المعارف الأدبية والنقدية والإنسانية، ولظهور النقد الثقافي بهذا كيفية أثار جدلاً واسعاً على الساحة النقدية العالمية بخاصة بعد أن تبناه وانتصر له الكثير من نقادنا بينهم الناقد السعودي عبد الله الغذامي كمشروع نقدي ثقافي حديث كفيل بقراءة نقدية معاصرة مختلفة عن القراءات النقدية السابقة.

وبتوسّع اهتمام النقاد والدارسين في هذا اللون من النقد وظهوره بقوة على الساحتين الدولية والعربية وانتشاره في أغلب الفاعليات الأكاديمية، وفي ضوء معترك النقد الثقافي جاء مقالنا هذا مُحاولاً الوقوف عند حقيقته عند ليتش كعامل لنشأته في الغرب، وعند عبد الله الغذامي كعامل رؤيا فاحصة عند العرب.

أولاً: النقد الثقافي عند ليتش

يُعدُّ الناقد الأمريكي فنسنت باري ليتش Vincent Barry Leitch 1944 م/1992 م، أول من اهتمَّ بالنقد الثقافي، حيث اعتبره "ردفا لمصطلحي ما بعد الحداثة وما بعد البنوية، حيث نشأ الاهتمام بالخطاب بما أنه خطاب وهذا ليس تغيراً في مادة البحث فحسب، لكنه أيضاً تغير في منهج التحليل، سيستخدم المعطيات النظرية والمنهجية في السوسيولوجيا والتاريخ والسياسة والمؤسساتية من دون أن يتخلى عن منهج التحليل الأدبي النقدي" (ليتش، 2000، صفحة 104)

فليتش يرى أنَّ النقد الثقافي هو مرادف لمصطلح ما بعد الحداثة postmodernism أو ما بعد البنوية Post structuralism، الحاملة لأسلوب فكري جديد ما عهده الساحة النقدية المشكك في الأفكار والتصورات الكلاسيكية ومناهضاً لها، ويدقق ليتش على فكرة الاهتمام بالخطاب من حيث هو خطاب ابستيمي مؤدلج، ذاكرة الارتباط الوثيق بين الممارسات الخطابية والمؤسسة المنتجة للخطاب - أي بين الممارسة الخطابية والأخطابية - "فالبنية المؤسسية التي ينبثق عنها الخطاب تكون هي تجسيداُ لذلك الخطاب ... وكلاهما مثبت بعلاقات القوة الكامنة فيهما" (ليتش، 2000، صفحة 104)

إنَّ النقد الثقافي، ليس تغييراً في موضوع ما يتناوله، بل في المنهج المتخذ للتحليل حسب ما ذهب إليه ليتش، هذا التحليل الذي يتناغم مع العلوم الأخرى، نحو: علم الاجتماع والتاريخ والسياسة والنقد الأكاديمي، دون التخلي عن المنهج التحليلي للنقد الأدبي، فالنقد الثقافي عند ليتش إذن يعتمد على منهجية جينالوجية لاستكناه الخطابات وما تحمل من أنساق ثقافية مهيمنة متأثراً بكل من جينالوجية نيتشه وميشال فوكو، منتقداً في الآن نفسه المؤسسة الثقافية الاجتماعية وتأثيرها السلبي على طريقة التلقي لدى القارئ بصفة عامة.

حيث نجد ليتش يؤكد على أنَّ النقد الثقافي هو مظهر من مظاهر المؤسسة المجتمعية، أو هو نتيجة لصراع القوى بين المعطيات المكونة لفسيفساء أي مجتمع، حيث يقول: "فالاشتراكية والنقابية والفوضوية مثلاً تعود في الزمن إلى ما قبل منتصف القرن التاسع عشر، ولا سبب يدعو للاعتقاد بأن كل فلسفة وحركة يسارية في المستقبل ستربط بالضرورة بالفكر والتراث الماركسي، وليس ظهور حقبة ما بعد ماركسية أمراً مستحيلاً، وقد أثار بعض الماركسيين الجدد في حجاجهم بأن الماركسية تنطبق على الرأسمالية الصناعية في القرن التاسع عشر وليس على الرأسمالية الاستهلاكية في أواخر القرن العشرين، التساؤلات، وأحياناً بلا داع حول استمرار ملازمة الماركسية المجتمعات الغربية المعاصرة وعلى وجه التحديد بدت إمكانية الثورة الاجتماعية المرتبطة بالبروليتاريا أمراً بعيد الاحتمال بشكل متزايد وتحول العمل التقدمي الراديكالي من

الستينيات بشكل ظاهر من العمال الصناعيين إلى الناشطين من أجل السلام والتوازن البيئي وحقوق النساء والتمكين العنصري، وهذه الراديكالية الشعبية أبعد ما يكون عن المصنع، وقد ظهر الصراع الطبقي في أمريكا من الناحية التاريخية كمجرد أثر باق بالمقارنة مع الصراعات الحقيقية ضد الأسلحة الذرية والحروب الآسيوية والتفرقة العنصرية. وأدت المصالح والأهداف والأيدولوجيات المختلفة للحركات الشعبية الناشئة إلى زعزعة السيطرة الماركسية على اليسار بشكل متزايد. وفي الوقت نفسه تضاءلت مصداقية الماركسية في عصر الفضاء مع التدخلات السوفيتية في تشيكوسلوفاكيا وأفغانستان، ومع الإضرابات العمالية ضد الحكومة الماركسية في بولندا ومع الإبادة البشرية التي دبرها اليسار في كمبوديا، وتجمعت كل هذه الأحداث كلها مع ظهور راديكاليين غير ماركسيين بارزين وذوي مصداقية مثل: رودولف بارو ونعوم تشومسكي، وشيلا روبرو ثام، لتجعل من قيام حركة ونمط تحليل ما بعد ماركسي ليس أمرا ممكنا فحسب، بل واعدة كذلك" (ليتش، 2000، صفحة 25) إذاً كل الأحداث السابقة لا يمكن بحال في ظل النقد الثقافي فصلها عن بعضها، فالانفتاح لا بد منه في ظل إيجاد مخرج خاصة بعد التشكيك في السرديات الكبرى، فكان على العالم من تغيير ربما يجد في ظله ما تصبو إليه العقلية الغربية.

على ضوء مقولة ليتش، وعلى أساس التفكير الغربي المتأمل التغيير كان النقد الثقافي المظلة التي أحالت النص وتحليله على عناصر سياسية وجمالية، النص بهذا فئة من النصوص يتصل بغيره من الخطابات وينفصل عنها في ذات الآن في خضم الثقافة الشاملة، فيشكل فسيفساء منسوجة بكم هائل من العناصر، لذا يدعو ليتش إلى أن مركزية مفهومية أساسية لمن يريد الإحاطة بالنقد الثقافي والوعي به، هناك أربع مهام جوهرية تجب معرفتها، وهي:

أ. **نظم العقل**، والذي يراه ليتش مفهوم مركزي متجذر " يتخلل كل الأنشطة والاختيارات والخطط والتقاليد ويوجهها، ويشكل تلك القيم جميعها داخل المجتمعات ترابطات جوهرية - بطرق شتى - في القانون والسياسة والفلسفة والتاريخ والأخلاق والدين والمعارف والتعليم والاقتصاد وأنماط التسلية والبنى الأسرية والنواحي الجمالية..." (ليتش، 2000، صفحة 34)

ب. **المساءلة الثقافية**، إن المقصدية من المساءلة الثقافية هو الكشف عن نظم العقل الذي لا يراد في ذاته، إنما جعل لمساءلة هذه النظم " بما يستلزم فحص وتقييم ما هو مُهيم وما هو معارض من المعتقدات والفئات والممارسات والتمثيلات، والبحث عن الأسباب والمكونات والنتائج" (ليتش، 2000، صفحة 94)، وهو بهذا - أي النقد الثقافي - الاشتغال بالبحث والفحص الدقيق في كل ما تلك الممارسات التي تندرج تحت فقاغة الثقافة.

ج. **الخطاب الأدبي جزء من النص الاجتماعي**، ينظر النقد الثقافي للغة لغة الذوات المتكلمة، فهي ليست تلك اللغة الحاملة لدلالات وأصوات وقواعد نحوية وصرفية، إنها لغة حياة؛ تمثل الشخصية الفردية والجماعية كما تعبر عن ذات الفرد والجماعة في ذات الآن، إنها في حد ذاتها ظاهرة اجتماعية وأيدولوجية، لذلك اعتبر ليتش أن النص جزء من النص الاجتماعي الذي يعتبر ساحة صراع.

د. **التنافس**؛ يعمل التنافس على تقويض السلطة المركزية من خلال تناسل النصوص، وهذه الدعوة التي يقول بها ليتش بأنه لا يوجد نوع نص صاف، إذ: " تدمج التقاليد اللغوية والاجتماعية مع الأدبية منها؛ فهي مرتبطة بنظم العقل، بما في ذلك العوامل المؤسسية والأيدولوجية لمثل هذه التكوينات الثقافية"، ولهذا يُعد التنافس نفسه جزء من نظم العقل.

ويؤكد ليتش أن من الأوائل الذين اهتموا بالنقد الثقافي ستيفن غرينبلات وإدورد سعيد، فقد اشتغلا به كثيرا وألّفا فيه العديد من المقالات والكتب، يقول ليتش: "ومن بين العدد المتنامي لنقاد الأدب في الولايات المتحدة الأمريكية الذين يمارسون النقد الثقافي ما بعد الماركسي؛ نجد دارس عصر النهضة ستيفن غرينبلات والمفكر المولود في فلسطين والدارس في أمريكا إدورد سعيد، وكما لاحظنا في مناقشات سابقة، فإن نقادا يساريين معينين مثل: بول لاوتر وكيت ميلليت في الستينيات وفلورنس هو وإيلين شووالتر في السبعينيات، وويليام سبانوس وروبرت شولز في الثمانينات تبنا عدّة مشاريع متنوعة من النقد الثقافي" (ليتش، 2000، صفحة 104). إن الطرح الذي يقول به ليتش أن النقد الثقافي كان ملاذا للنقد

في الساحة الغربية للوصول إلى ما يُضمَرُ من فكر من خلال إعادة قراءة النص في ظلّ التطور العولي ومحاولة الإمساك بخيوط الأيديولوجيا المسيّرة لذلك التغيير الذي رأى أنّه لا مفرّ منه.

يقول غرينبلات: "تشكيل المرء لنفسه وتشكله بالمؤسسات الثقافية - الأسرة الدّين الدولة - أمران مرتبطان بلا انفصام، وأنّه لا توجد لحظات من الدّاتية الخالصة غير المقيدة، بل لقد أخذت الدّات الإنسانية نفسها تبدو غير حرة إلى حدّ مدهش، وأنها النتاج الأيديولوجي لعلاقات القوّة في مجتمع معين" (ليتش، 2000، صفحة 22)، فالأمر لا يتعلّق بسلطة موجبة عيانا صوب حريّة الفرد، إنّما ما تأسس عليه من ثقافة وأيديولوجية لازمتها مذ أمد بعيد لا يستطيع الفكّك منها، وبهذا فهو حقيقة - أي الفرد - منتج اجتماعي بالدرجة الأولى.

- ليتش ورفضه البنوية:

انتقد ليتش أكثر ما انتقد البنوية وأبعادها المنغلقة على قراءة الخطاب الأدبي، كما انتقد القراءات التي كانت تنصبّ اهتماماتها حول سيرة المؤلّف في إشارة منه أنّ النّقد الثقافي ممتدّ الجذور من قبل البنوية إلى ما بعدها معطيا تفسير جرينبلات الذي أدان كتاب كليفور دجيرتس (تفسير الثقافة 1973م)، في قوله: "المشكلة الرئيسية في السيرة هي أنّها تقصر نطاقها على سلوك الكتاب وتضحي بالاهتمام بالشبكات الاجتماعية الأوسع، من هنا لا يمكن بحال التغاضي عن المشهد الاجتماعي الذي بدت بوادره واضحة المعالم أنّ النصّ أعمّ واشمل من أن يُختصر في سيرة مؤلّف أو جمالية نص أو بنية منغلقة" (ليتش، 2000، صفحة 403)، وفي ذلك يقول ليتش: "ترفض استعداد اليسار الأدبي للقبول بعزلة الدّراسات الأدبية وتجاهله للقضايا الاجتماعية الأكبر" (ليتش، 2000، صفحة 405)، فالنّقد الثقافي ذلك الكلّ الشّامل المرتبط بعضه ببعض في دائرة الثقافة، فهو يمتح من أطراف كلّ ميدان ويستلهم أبعاده من ظلاله، كلّ ذلك يحتاج إلى إعادة التّفكير في ما دعا إليه علم الاجتماع الأدبي الذي يصوّر الأدب بشكل مبالغ على أنّه مجرد انعكاس للقواعد والشّفرات الاجتماعية ويعزله داخل البنية الفوقية الأيديولوجية مقلّلا من دور المؤلّف كمرتجل خلاق.

وبهذا يكون ليتش قد حدّد مفهوم النّقد الثقافي في كونه شبكة من العلاقات السوسيوثقافية، والتي تستمد قوتها من المجتمع، علاقات تطبع النصّ أي نص، وعند نقد هذا النصّ يجب مراعاة كلّ تلك المعطيات الفاعلة فيه، والمكونة له.

ثانيا: النّقد الثقافي عند الغدّامي

يُعرّف الغدّامي النّقد الثقافي، فيقول: "النّقد الثقافي فرع من فروع النّقد التّصوي العام، ومن ثمّ فهو أحد فروع علم اللّغة، وحقول الألسنية، معنيّ بنقد الأنساق المضمرّة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكلّ تجلياته وأنماطه وصيغته، ما هو غير رسمي وغير مؤسّساتي، وما هو كذلك سواء بسواء ومن حيث دور كلٍّ منها في حساب المستهلك الثقافي الجمعي" (الغدّامي ع.، النّقد الثقافي، قراءة في الأنساق العربية، 2005، صفحة 84)

يرى الغدّامي أنّ النّقد الثقافي فرع من فروع النّقد الألسني، وعلم اللّغة، عادّا إيّاه نظرية قائمة بذاتها، وهو مجال معرفي واسع شاسع؛ منطلقا من اللّسانيات بفروعها إلى المناهج النّقدية النّصية: البنوية والسيمائية والتفكيكية، مع اختلافه مع هذه المناهج في دراسة النّسق أين تكمن مهمّة النّقد الثقافي سؤال النّسق المضمر بدل النصّ، وسؤال المضمر بدل الدّال، وسؤال الاستهلاك الجماهيري بدل سؤال النّخبة، لذلك فالنّقد الثقافي - في رأيّه - لا يدرس الثقافة فحسب، بل يتجاوزها إلى المنتج الثقافي، هذا النّسق المتموقع في الخطاب الأدبي، نسق يحمل تبعات ثقافات مخبوءة عميقا هي إفرازات ما بعد الحداثة، وهو بذلك لا يُفرّق بين النخبوي والشّعبي في المنجز الثقافي، ملحا على ضرورة الاستعانة بجميع المناهج والنّظريات والأدوات عند الكشف عن هذا المخبوء.

حينما قيل للغدّامي عرّف بنفسك، قال: "سمّوا أنفسكم مُستقلّين، قولوا بحريّة التّفكير والتّعبير لمخالفكم قبل أنفسكم، قل رأيك ولا تُبالي شرط أن تقول: هو رأيّ أعرضه ولا أفرضه هذا أنا عبدُ الله الغدّامي" (بالإمارات) هو ناقدٌ عربيّ وأكاديميّ سعوديّ، مارس التّدريس بجامعة الملك سعود بالرياض، عرّف عنه التّجديد في النّقد من خلال ما أسماه بمشروع النّقد الثقافي، ناسبا إيّاه لنفسه، أسهم بقراءاته النّقدية المخالفة للمألوف وفق نظريته الخاصّة،

تناول فيها الحداثة، اللغة، المرأة، الجنوسة، الثقافة السلطة، السياسة اقتفى خطى ليتش وبارك تفكيكية دريدا واتخذها استراتيجية في كتابه " الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التثريحية"، الذي ألقاه عام 1985م، وفي عام 2000م ألقاه: " قراءة في الأنساق الثقافية العربية"، وهي قراءة جديدة للأنساق، بطن فيها - حسب رأيه - ثقافة مُرّرت تحملُ خفايا لم يكن النقد الأدبي قادراً على اكتشافها، إنما عمل النقد الثقافي على كشفها وقراءتها ومعرفة ابستيميته، ولم يلبث أن أفاض في الحداثة من خلال مؤلفه: "حكاية الحداثة في المجتمع السعودي" عام 2004م متحدّياً التقاليد التي في رأيه تحملُ أنساقاً ثقافية مُمتدة ومُتجددة في فكر الفرد العربي.

لقد لقي ما جاء به الغدّامي امتداحاً وتأييداً من ناحية، كما لقي سخطاً وتكراراً من ناحية أخرى فمن بين الذين ثاروا على الغدّامي، الناقد أدونيس الذي قال حينما سُئل عن النقد الثقافي: " لم يعجبني لأنني لم أر فيه إلا منهجاً يفهم الشعر بعقلية مؤسسية ويرى أن الثقافة في جانبها الشعري الخلاق مجرد مجموعة من الكتب والجمعيات والأحزاب والأيدولوجيات.. إلخ" (<https://www.alwatan.com.sa/article/1104641>، 2024).

كما أُنقِدَ الغدّامي في نسبه النقد الثقافي لنفسه، في حين يرى آخرون أن علي الوردي الباحث الأنثروبولوجي العراقي كان أول من أشار إليه - أي إلى النقد الثقافي - من خلال تحليلاته للأنساق الثقافية للمجتمع العربي القديم، والمجتمع العراقي بخاصة في كتابه "وعاظ السلاطين" وكتاب: "مهزلة العقل البشري" وهو مواجهة من قبل الوردي للتفكير المسيطر والمهيمن والمستحوز على الذهنية المجتمعية قال في كتابه الأول: "إن الإنسان حين يسلك سلوكاً معيناً أو يعتنق رأياً أو عقيدة يتصور أنه فعل ذلك باختياره وإرادته الحرة، ومن جراء تفكيره المجرد، إنه لا يدري أن وراء سلوكه أو رأيه عوامل عديدة وأن هذه العوامل تؤثر على تفكيره من حيث لا يشعر بها" (الوردي، 1995، صفحة 116)

الغدّامي أكثر الأشخاص إثارة للجدل في الساحة النقدية العربية، حينما دعا إلى قراءة نقدية ثقافية للشعر العربي تحديداً في محاولة للكشف عن العيوب والقبحيات التي يتضمنها، وكأنّ الشعر العربي ما عُرف إلا بالقبحيات، فهو ناقد عُرف بانهاره بالمناهج الغربية، يقول: " احترت أمام نفسي وأمام موضوعي ورُحْتُ أبحتُ عن أنموذج أستظلُّ بظله ... كي لا أجترّ أعشاب الأمس فوجدتُ منهجي ووجدتُ نفسي" (الله، د.ت)، (صفحة 07)

هو صاحبُ المقولات المتعددة، وفي شتى الموضوعات، عُرف بتناقضاته، حيث يقول قولاً ثم ينفيه فقد قال بموت النقد الأدبي وإحلال النقد الثقافي مكانه، كما قال بموت المؤلف، وسرعان ما ينفكُ يُفندُ مقولته، يقول: "قُلْتُ بموت النقد الأدبي وظيفياً؛ إذ ليس هذا النقد بقادرٍ على كشف الأنساق وتظل جدواه فقط في قراءة النصوص، وليس الأنساق، والنقد الثقافي هو الفعل الحيوي ثقافياً وليس أدبياً، ويمثل ضرورة عصرية وتحولاً معرفياً، ومن ثم يقدم وظيفة مختلفة اختلافاً جذرياً للتحليل والكشف والحفر عن النسيقات الثقافية" (الأسئلة المعارضة للنقد الثقافي، 2024)

تعرّض الغدّامي لمساءلات كثيرة حول ابستيمية هذا النقد، وكيف له أن يطبق على موروث له من المكانة الأسى والأبلغ في وعي المفكرين والشعراء والأدباء والنقاد العرب؟ وهل يمكن تسمية هذا النقد - النقد الثقافي - بنقد كشف القبحيات فقط؟ وهل استحضار مناهج غربية صرفة وتطبيقها على الموروث الشعري العربي، قادر على قراءته ونقده واستخلاص كنهه علماً أنّ النقد الذي يتحدث عنه الغدّامي خصّ الشعر العربي فقط دون الأجناس الأدبية الأخرى؟ كلّ ذلك استحضاراً لقوله: "لقد أن الأوان لكي نبحت عن العيوب النسقية للشخصية العربية المتشعنة، التي يحملها ديوان العرب وتتجلى في سلوكنا الاجتماعي والثقافي بعامّة، لقد أدّى النقد الأدبي دوراً هاماً في الوقوف على جماليات النصوص، وفي تدريبنا على تذوق الجمالي وتقبل الجميل النصوي، ولكن النقد الأدبي مع هذا وعلى الرغم من هذا أو سببه، أوقع نفسه في حالة من العمى الثقافي التام عن العيوب النسقية المختبئة من تحت عباءة الجمالي" (الغدّامي ع، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق العربية، 2005، صفحة 7)

لقد عُرف الغدّامي بمصطلحاته الغريبة على الساحة النقدية، حيث "عكف على تشكيل هذه المصطلحات، وابتدع بعضها منها، مخالفاً غيره من الدارسين تعريباً وترجمةً مثلما هو الشأن مع مُصطلح Poetic الذي ترجمه إلى الشعاعية بدل

الشعرية، وكذا مصطلح grammarology الذي ترجمه إلى التحوية بدلاً لمصطلح الكتابة، ومُصطلح التشريحية بدلاً من التفكيكية، ... وما إلى ذلك من الأمثلة الواردة في دراساته" (السماعي، 2008، صفحة 77)

وما يمكن قوله أن الناقد الغدامي، وجد لنفسه مجالاً معرفياً اتخذ منه مُنطلقاً، مُتمثلاً في النقد الثقافي وقد وجد في المناهج السياقية والنسقية مظلة له.

1. الأسس الفكرية للنقد الثقافي عند الغدامي

ما يمكن قوله حول مؤلفات الغدامي، وما حوته من أفكار هو تناوله لأفكار مسيطرة للواقع فهي آنية لحظية تُبررُ تصوُّره لمختلف قضايا المجتمع والعالم، انطلاقاً الغدامي عنوانها اللامركزية لكل أفكاره والتشكيك في الشعر باعتباره ديوان العرب وقد عفا عنه الزمن - حسب رأيه - بما حواه ويحويه بل هو رؤيا نسقية مليئة بالعيوب واللامنطق، ممّا صبغهُ من جهل في الفكر والتفكير، ما أنتج فحولة مرضية وطغياناً أعمى، وسُكراً عقلياً لا زالت العقول العربية تعاني منه حدّ السّاعة.

للغدامي توجهات، كما يقول عن نفسه، إذ كتب عن: البحث الفلسفي، ازدواجية الذّهنية الثقافية، ما بعد الحداثة، التفاعلية الثقافية، القمع الذكوري "شرعت في نقد العقلانية بسؤال عن غير المعقول من تحت المعقول، وهل العقل حقاً هو ما يحسم سؤال الإيمان أو سؤال الإلحاد ومن هنا جاء السؤال المركزي كيف لعقول البشر أن تؤمن أو تلحد وهذا السؤال هو أطروحة كتابي العقل المؤمن العقل الملحد، ثم تبع ذلك سؤال مفاده هل يلحد القلب، وهذا موضوع الكتاب الثاني، مما أفضى بي إلى سؤال مشاغب أيضاً عن الخطاب الفلسفي نفسه، وهل هو عقلائي بدرجة كافية أم هو خطاب معلول أيضاً وينطوي على علل نسقية، وهنا جاءت فكرة مآلات الفلسفة في عصر ما بعد الحداثة وهل ماتت كما زعم هوكينج أم أنها تحولت إلى النظرية النقدية؟ وهذا هو الذي أراه، ومن ثم سعيْتُ لتلمس حال الخطاب الفلسفي عبر السؤال النقدي التشريحي الذي يكشف قصور الفلسفة أو عجز العقل كما ورد عند أبي حامد الغزالي، وكما ورد عند روسو وكانت وهيجل، وإلى حد ما عند برتراند راسل، وهنا أزعّم أن الفلسفة تحولت إلى النظرية النقدية بمعنى أنها السؤال وليست الجواب، ولو افترضنا أن الفلسفة تجيب، فسيلزمنا أن نحكم لمتون الفلسفة على مدى خمسة وعشرين قرناً، وهي متون أجوبة وبالتالي ستكون قد أنجزت مهمتها، وستموت حتماً أمام تحديات الفيزياء والذكاء الاصطناعي، وقد سميت بالعقلانية الجديدة كما شرحت في كتابي السردية الحرجة، هذه التحديات مع بعضها هي التي أقحمتمني بالبحث الفلسفي" (نت 24)

ينطلق الغدامي في كل كتاباته من مبدأ الاختلاف؛ اختلافه في الرؤيا للموروث العربي، بدءاً بالشعر باعتباره ديوان العرب، حيث شكك فيه من حيث أنه يحمل أنساقاً مُضمرة يجب استظهارها للعيان، مروراً بالثقافة العربية، والتي يرى أنها تحمل أنساقاً خبيثة غير بريئة، هذه الانطلاقة مردّها تكوينه الغربي الذي تلقاه في الو. م. الأمريكية من جهة، وانتهاره بالثقافة الغربية من جهة أخرى ودليل ذلك المقارنة الدائمة بين الغرب/العرب أبانت عن البون الشاسع بينهما من حيث التحضر الفكري، يقول في ذلك: "ونحن لو تمعنّا في الواقعة الثقافية والاجتماعية العربية المعاصرة، لوجدنا أنّ الخلل الأكبر فيها هو نقص التصور النظري من جهة، وانفصام التطبيق عن التنظير، وربما تعارضهما ويصحب ذلك الخلل ويتواطأ معه صورة فحولية مترسّخة ترشّح المؤلف ليكون معلماً أول، وتضعُ القراء في صف التلاميذ، وهذه هي سيرة المؤلفات قديمها وحديثها وهي مؤلفات تصنع أجيالاً من التلاميذ القُصّر الذين هم عالات على الآباء المؤلفين الأوائل، وورثة الأوائل" (الغدامي، 2003، صفحة 11)

كتب ياسين كتي قائلاً: "... لطالما كَرَّرَ الغدامي على مسامعنا أنّه لا يُريدُ بمشروعه للنقد الثقافي أن يقصي النقد الأدبي، ويريد أن يعلن عن موته، لكنّه يعودُ مرّات ليقول بموت النظريات ويقصد النقد الأدبي ويُظهرُ عدم جدواه،... ولا يسعُ القارئ لكتاب الغدامي إلا أن يلاحظ التناقض الذي لا يستطيع الغدامي تجاوزه، بين اعتبار النقد الثقافي بديلاً وبين التداخل بين النّقدين..." (ياسين)

لماذا وضع الغدّامي الشّعْر في ميزان النّقد بهذه الشّاكلة؟ وهل الشّعْر وحده المسؤول عن تمرير التخلّف وكلّ أمراض المجتمع الّتي يعانها من طغيان وفحولة وهيمنة؟ من هنا كانت انطلاقة النّقد الموجه للغدّامي، يقول عبد العزيز السّبيل: "أتساءل ما إذا كانت السّلبات الّتي يحويها المجتمع العربي جاءت بسبب الشّعْر؟ وهل مجرد التشابه بين ما يحدث في الشّعْر وفي المجتمع يجعلنا نصل إلى هذه النتيجة؟ وهل ما يحدث في المجتمع العربي يأتي نتيجة للتأثر بالقول الشّعري أم نتيجة للواقع السّياسي الّذي عاشه المجتمع العربي عبر عصوره المختلفة؟ والسؤال الّذي يجب أن يُطرح هو: هل نحن أمام شعرة أم أمام سيّسة؟ وبالرّغم من أنّ النتيجة واحدة إلّا أنّ المصدر مختلف. من هنا كان الغدّامي يتولّى الدّفاع عن السّلطة السّياسية ولو بطرُق غير مباشرة وذلك بتحميل الشّعراء فقط مسؤولية تخلّف الأُمّة" (السّبيل، 2001، صفحة 260)

فتح الغدّامي بوابة النّقد الثّقافي في السّاحة العربية، ومن ثمّة بات مصطلحه الشّعرة يُصاحب كلّ ما له علاقة بالقبح المضمّر، فانطلقت المصطلحات من مثل السيّسة عند السّبيل، أين عزى ما يعاناه المجتمع هو نتيجة التسييس القبيح، ثمّ يأتي سامي العجلان بمصطلح الفقهنة ليعلّن أنّه أكثر المصطلحات ثراءً بالأنساق، وهكذا لكلّ الحقّ في امتلاك المصطلح الّذي يُناسب طرْحه الفكري خاصّة في السّاحة النّقدية الآنية.

أمسى النّقد الثّقافي مفهوم المقصد، يقول محمد سالم سعد الله: "ومن جهة أخرى، فإنّ النّقد الأدبي إرث تاريخي مُمتد، ومرجع علمي معرفي، ابتدأ مع الذّوق الأدبي الفردي، وتطور مع التّحليل العلمي أمّا النّقد الثّقافي، فقد بدأ فنيًا مع إفرافات التوجهات المعاصرة الدّاعية إلى محو الثّقافات الوطنية والتوجّه إلى ثقافة عالمية متمركزة حول نتاج واحد" (سالم) إنّ النّسق هو الفكرة أو العادة الّتي تبدأ ثمّ تنتشر بين الأفراد وبعد ذلك تتطور لتصبح تقليدًا مستمداً من المجتمع، فتتحكّم بشكل كليّ أو جزئيّ وبتكرارها تصبح نظامًا مُحدّدًا متفقًا عليه، هذا هو مقصد الغدّامي للنّسق، حيثُ يربطه بالمجتمع لأنّه الحاضنة الأولى والكبرى له، وحينما استقرأ الشّعْر العربي أدرك - حسب رأيّه - أنّه مليء بالأنساق المضمرة والمتخفية، الّتي تحمل في ثناياها عيوبًا كثيرة لا يُمكن عدّها. لذلك لم يلق مفهوم النّسق وضوحًا لدى النّقاد العرب، فعبد النبي أصطيف يرى أنّ الغدّامي ورّط نفسه من خلال إعطائه مفاهيم كثيرة من مثل: "المكبوت النّسقي، المكوّن النّسقي الحسن النّسقي، والنّسق الثّقافي، والعيب النّسقي، والوظيفة النّسقية والدّلالة النّسقية، والمضمّر النّسقي والنّمط النّسقي المتمكّن، ثمّ يتساءل: كيف يمكن للقارئ أن يُتابع حاجة الغدّامي وهو يصول ويجول في دفاعه المستميت عن هذا المجهول أو النّسق دون أن يسعفه ولو بتعريف بسيط، يُيسّرُ عليه صحبته في كفاحه من أجل النّقد الثّقافي" (اصطيف، 2004، صفحة 189)

وفي ضوء كلّ ذلك، يمكن الخلوّص إلى أنّ الغدّامي قد بنى مفهوم النّقد الثّقافي على أساس نقده للشّعْر العربيّ القديم بخاصّة ونقده للفلسفة العربية بعامة، مُحدّدًا معاملته على أساس التجاوب الإيجابي مع الفكر الغربيّ وضرورة إسقاطه على كلّ ما هو ثقافة عربية، بكلّ ما تحتويه هذه الأخيرة من تداعيات أيديولوجية، فكرية، أدبية، دينية، أسهمت في إنتاج مجتمع متخلّف - في رأيّه - وفرد فاقد للوعي المتحضّر.

2. بعض مقولات النّقد الثّقافي

لا يمكن إنكار أنّ ثمّة تنوعًا لا يُحصى في ميدان النّقد الثّقافي، ما يستدعي استحضار مصطلح الأمبريلا الّتي يُمثّلها خير تمثيل، من حيثُ استخدامه النّظريات والمناهج، فذاك مجالٌ يستخدم كلّ ما يُفيد قراءاته وتحليلاته، ومن هنا تتبيّن لنا ضرورة إشراك النّقد الأدبي في تحليلاته من خلال ما ذكر آنفاً لقد أمسى النّقد الثّقافي منفذًا للقراءة لا مناص منه، أقلّ ما يُقال عنه أنّه قراءة لا ولن تكتفي بالنّص الأدبي فحسب، بل بكلّ ما له علاقة بالإنتاج الثّقافي الإنساني، لطُرُق التّفكير، بالرّؤية الأيديولوجية باللّوحات الزيتية الإبداع الصّامت، باللّباس، بالمعتقد، بالطبخ وما يحوي من أطباق،... إنّهُ التحوّل الدّراسي المتبوع بالانفتاح المهول على كثير من المشارب والقضايا، فيحكم هذا التعالق المعرفي رُصدت الكثير من المقولات، والّتي يمكن ذكر البعض منها، وهي كما يأتي:

1.2 الهيمنة الثقافية الغرامشية والخطاب السلطوي الفوكوي

يذهب غرامشي صاحب مصطلح الهيمنة، إلى أن القصد منها هو امتلاك فئة ثقافية أو هيئة ما أو مؤسسة معينة القدرة على امتلاك زمام التأثير فكريا وثقافيا وسياسيا في مجتمع ما، ما يجعلها صاحبة اليد الطولى في صعود طبقة اجتماعية دون أخرى وإحكام سيطرة الطبقة المهيمنة، اعتمادا على نظير مُثقفها (البازعي، 2002، صفحة 346) أما مفهوم السلطة Power عند فوكو Foucault، فهي القدرة على تحقيق ما هو مرغوب فيه، سواء وجدت مُقَامَةً فيه أم لم توجد، وتتضح ملامح السلطة في الأدوات والأساليب والإجراءات المؤثرة في أفعال الآخرين، لهذا نجد الهيمنة والسلطة تشتركان في مقصدية واحدة، وهي تحقيق المصالح والنفعية، فأيضا كانت المصلحة فئمة النفعية، كما أدرج فوكو مصطلحات من مثل التسلط والسيطرة أين رأى أنهما يحملان دلالات سلبية، في حين يحمل مُصطلحا الحكم والانضباط تنظيم السلوكيات الفردية بقصد التأثير فيها من خلال العمل على ضبط النفس والقدرة على الانسجام الطوعي ما يؤثر أيضا على شخصياتهم (ياقوت، 2005، الصفحات 20,163).

ينطلق المصطلحان - أي الهيمنة والسلطة - من البراغماتية التي تتخذ المراوغة والتلون وعدم الثبات خصيصة من أهم خصائصها، والنقد الثقافي هنا لا يكتفي بتحليل السياق الذي وجد فيه، بل يحاول "تناول موضوعات تتعلق بالممارسات الثقافية وعلاقتها بالسلطة، واختبار مدى تأثير تلك العلاقات على شكل الممارسات الثقافية" (القادر س، 2003، صفحة 13)

2.2 النسق الثقافي:

يحدد تيري إغلنتون مفهومه للنسق، قائلا: "إن التآويل الثقافية معني بفحص الرؤى الأيديولوجية والممارسات الاجتماعية في بنية الخطاب الأدبي، بوصفها أنساقا غير بريئة" (عليما، 2009، صفحة 67)، إن النسق الثقافي كما يراه إغلنتون يتحدد ضمن الخطاب، وتفسيره يكون داخل السياق الثقافي الذي يوضع فيه، ويمكن أن يتخذ من التغيير نمطا له.

ويحدثنا عبد الله الغذامي عن مفهوم النسق "مذ طرح كتابي النقد الثقافي عام 2000م وأنا أتلقي تساؤلات القراء وحيثهم حول مصطلح النسق، وكنت أحيلهم حيناً للفصل الثاني من الكتاب حيث فيه بسطاً للنظرية والمنهج يوضحان المصطلح ويغوصان في تشابكه وظل السؤال يلاحقني لسنوات، ... لذا لجأت لمحاولات التبسيط والتقريب وصرت أقول لهم إن النسق في الثقافة مثل الفيروس في الجسد، خفي وقاتل، وعند القدرة على التبدل والتنوع والاحتيايل لكي يظل يفتك بالجسد، وهذه كلها صفات الأنساق الثقافية كالغضرية والطائفية والدكتاتورية والفحولية، وكلها فيروسات ثقافية قاتلة، وهي تحتلنا وإن كنا ندعي أنها ليست فينا ولها قدرة على إضمار نفسها والتخفي تحت صيغ مضمرة تفتك برؤانا وليس لنا إلا محاولة كشفها وتعريضها من باب تسمية المرض باسمه كما يفعل الطبيب، ... وظلت الأسئلة تأتي فترة بعد فترة، وفي آخر محاولة مني للتبسيط، قلت: النسق كلمة في وصف الفكرة حين ترسخ وتكون أقوى من العقل مثل تفضيل الولد على البنت، أو الأبيض على الأسود، وكم سعدت إذ وجد المتابعون راحة في تقبل هذا التعريف" (الغذامي، 1915)

يبدو أن الغذامي، ومن خلال المفهوم الذي أوردته عن النسق الذي يبقى غير واضح إلا أن يوضع في موضع يجعله ذا وظيفة معينة، هذه الوظيفة لا تتحدد إلا بتعارضه مع نسق آخر، بحيث يكون أحدهما ظاهرا والآخر مضمرا، وهذا الأخير ينسخ الظاهر، شريطة أن يكونا - أي النسقان - في حكم النص الواحد وأن يوصف النص بالجمالية والجماهيرية (الغذامي ع، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق العربية، 2005، صفحة 77). لا غرو أن المقام لا يفصل في المعنى اللغوي والاصطلاحي للنسق، إنما ينحو به نحو مفهومه من منظور النقد الثقافي، يقول تالكوت بارسونز Talcot Parsonz، "النسق نظام ينطوي على أفراد فاعلين، تتحدد علاقاتهم بمواقفهم وأدوارهم التي تنبع من الرموز المشتركة، والمقررة ثقافيا في إطار هذا النسق، وعلى نحو يغدو معه مفهوم النسق أوسع من مفهوم البناء الاجتماعي" (جابر، 1993، صفحة 411).

النسق عند بارسونز ينطلق من الشريعة الاجتماعية، فعنداً عنده أكبر نظام في المجتمع، إذن النسق نظام يكشف البنية الكامنة في الفكر الإنساني، وإظهاره لا يكون إلاً بالممارسة الفعلية لهذه الأنظمة (السعودي، 2017، صفحة 206).

3.2 اللاوعي الثقافي:

إن اللاوعي من أهم المفاهيم التي أفاد منها النقد الثقافي، وكان مثقفو نيويورك ممن ركزوا في بحوثهم على استخدام التحليل النفسي والثقافي، يقول ليتش: "فقد استخدموا عدة طرق نقدية للتحليل بما فيها التحليل النفسي، في سبيل تحقيق نقد ثقافي واسع النطاق" (ليتش، 2000، صفحة 111)، يرى أصحاب التحليل النفسي وعلى رأسهم فرويد أن اللاوعي هو مخزون أيديولوجي اجتماعي مؤثر في الإنتاج الفكري الفردي، وبهذا يتم الامتزاج بينهما، كما يذهب يونغ إلى تسمية اللاوعي الثقافي بالقناع، فيصير بذلك متحكماً في التفكير الجمعي، يقول يونغ: "القناع يخفي جزءاً من النفس الجماعية ويُعطي في الوقت ذاته وهماً بالفردية، قناع يدفع الآخرين ويدفعنا نحن إلى الاعتقاد بأن الكائن المعني فردي، في حين أنه في العمق يلعب دوراً تعبر عن معطيات وضرورات النفس الجماعية عن نفسها من خلاله" (محسن، 1997، صفحة 61).

ينطلق التحليل النفسي من خصيصة مفادها أن اللاوعي الثقافي، حاضر على المستوى الفردي فالتنص أو الإبداع زاحراً بالغرائز المكبوتة والتي تمثل الهو (ID)، أين يحاول الأنا التحكم فيها لتحقيق التوازن النفسي والاجتماعي معاً للذات، إلا أن هذه الأنا تبقى تحت سلطة الأنا العليا يُطلق عليها الرقيب الداخلي (super ego) الذي ينبو عن ثقافة المجتمع، وقد مهد فرويد الطريق للنظريات التي تعترف بالدوافع الفردية في الوقت نفسه، والتي تعمل فيه على وضع هذه الدوافع في إطار التشكيلات الثقافية والأنظمة السياسية" (مرسي، 2005، صفحة 277)

ينتج الصراع الحتمي بين الرغبتين الواعية واللاواعية، ثمة فقط يأتي دور النقد الثقافي للكشف عن هذا الصراع، وكيف تكمن الهيمنة لأحدهما.

4.2 الاستشراق وخطاب ما بعد الكولونيالية:

يرى إدورد سعيد أن الاستشراق هو طريقة غربية تهدف إلى إعادة السيطرة على الشرق، يقول ليتش: "يعد إدورد سعيد من الأوائل الذين طبقت مواقفهم النظرية في دراسة وكشف النظرات الأوروبية والأمريكية المشوهة للمجتمعات العربية في سلسلة من الكتب بما فيها الاستشراق" (ليتش، 2000، صفحة 405)، لقد بذل الغرب جهدهم في توظيف أكاديميين للتأصيل لفكرة الاستشراق، والذي ولد مصطلح (الأخر) نقيض (الذات)، فكأن فيما بعد ثقافة هجينة لا هي مثلت الآخر ولا هي أيضاً جسدت الذات أطلق عليها هومي بهاها Homi K. Bahabha في كتابه "موقع الثقافة" مصطلح الفراغ الثالث،: "الفراغ الثالث ويعني بها عملية التهجين التي لم تكتف بمجرد احتلال مكان التاريخ الذي أنشأها، بل إنها ترسخ هياكل جديدة للسلطة مولدة أولويات سياسية جديدة" (القادر س، 2003، صفحة 124)

إن التهجين كنتيجة للاستشراق البغيض قائم على عدم تمجيد الآخر على حساب الذات، من هنا ظهرت فكرة الأدب الهامشي "التهجين" وحظي بالاهتمام في النقد الثقافي، لأنه يستقصي الأنساق المضمر في الفكر الفردي والجمعي، لتحقيق الكشف عن الرؤيا تجاه الآخر والذات في آن واحد.

اهتم النقد الثقافي أيضاً بخطاب ما بعد الكولونيالية، لأنه يعمل على بلورة وصياغة وتصميم وتأطير الوعي الحديث، متخلياً عن الاستعمار الكلاسيكي من حيث تغيير الرؤيا بوسائل تستدرج الفكر وتغوص في اللاوعي ما يؤثر على مفهوم الهوية والانتماء، وأبرز ناقد مارس النقد الثقافي في هذا الشأن ستيفن غرينبات Stephen Greenbatt مؤسس التاريخانية الجديدة الذي يرى أن الثقافة نظام من القيود لأنها لصيقة بالمجتمع، سمة من سماته التي تمثلها، ويطلق غرينبات فيما أسماه بالجماليات الثقافية ويقصد بالثقافة أنها نظام من القيود من مثل المصطلح (الكواح system of constraints) ومصطلح الحراك mobility وتبقى هذه المصطلحات تشير إلى قضايا متناقضة لكن الشئ الوحيد الذي يعتمد عليه هو الركون إلى الوعي بالثقافة الذي يساعد على استعادة المعنى والعمل على التنقيب عن الحدود التي تمثلها عند وجودها أول

مرة من خلال توجيه الاهتمام نحو المعتقدات المتضمنة في العمل الإبداعي، ويُدرجُ غرينبلات أنَّ ثمةً أسئلة ثقافية من الواجب أن تُطرح على العمل الأدبي لفهمه ثقافياً، من نحو:

- ما السلوك والممارسات التي يلتزم بها العمل؟
 - هل يشعرُ القارئ في زمان ومكان ما بأنَّ هذا العمل قادر على فرض نفسه؟
 - من قيَّدت حريته أو حركته، تلميحاً أو تصريحاً بسبب هذا العمل؟
 - هل من اختلافات القيم التي يُقدِّمها العمل، وبين القيم التي يؤمنُ بها المتلقي؟
 - ما المؤسسات الاجتماعية التي يُمكن أن ترتبط بها الأعمال؟ (السعودي، 2017، صفحة 212)
- نَّ النقد الثقافي أفاد من خطاب ما بعد الكولونيالية بوصفها نظرة نقدية وسياسية من خلال جمعها للمتقابلين؛ الشرق/ الغرب الآخر/ الذات، وبين الهامش/ النخبوي.

5.2 النسوية الثقافية:

ظلت النسوية لحدَّ اللحظة، تُشيرُ إلى المكانة الدنيا التي تنالها المرأة مُقارنَةً بالآخر "الرجل" والنسوية تبقى نتيجة لهذا التدني قيمة في المجتمع الأوروبي وفي جميع المستويات الحياتية، كما ترى المرأة أنَّها تستطيع تغيير هذه المكانة - حسب مفهومها - عن طريق العمل الجماعي، وعن طريق الرِّفْض للهيمنة الذكورية، وبالتالي فمقصدية النسوية تغيير وضعية المرأة في المجتمع نحو آفاق تضمن لها المساواة مع الآخر (الصَّدة، 2002، صفحة 337).

ركَّزَ النقدُ الثقافيُّ على فهم الرابطة الذي يربطُ المرأة بالرجل من جهة والمجتمع من جهة أخرى ومن ثمة يمكنُ تحديد مواطن الهيمنة من حيث اعتبار المرأة في خانة الهامش بتبني المركز "اجتمع أثرُ النقدِ النسوي والعرق واليساري، ليفرض الاعتراف بأنَّ النصوص الأدبية هي بالأساس وثائق وأحداث اجتماعية، تُحيلُ إلى موضوعات اجتماعية تاريخية، إذ ركَّزَ النقدُ الثقافيُّ على دراسة الاختلافات في الهوية بسبب الجنس Gender أو العرق Race وكشف الخطاب وما تحويه من تحيزات تعود في معظمها لأسباب سياسية من قبل المركزية الذكورية Androcentrism المتمثلة في سلطة الرجل والتي تسعى إلى تهميط المرأة تنميظاً فكرياً يُحقِّق أهدافه" (المزروي، 2007، صفحة 18)، تعملُ النصوصُ الأدبية التي تخوضُ في موضوع النسوية في السَّاحة النقدية، على الكشف عن الهيمنة الذكورية من معيار ثقافي مُضمَر في الوعي الإنساني، هذا التمثلُ يعملُ النقدُ الثقافيُّ على البحث فيه باستخدام آلية التأويل.

6.2 الخطاب الإعلامي:

الخطابُ الإعلاميُّ صناعةٌ ثقافية، وهو صنفٌ من أصناف الخطاب، تجتهدُ عديد الوسائط في إنتاجه، وله قدرةٌ فعالة ومُمنهجة بتطويع آليات بعينها للتأثير ولتغيير المفاهيم، واستخدام عنصر الاستهداف الواعي، والكلُّ يعلمُ التنوع الإعلامي المكثف المرفوق بدقَّة المقصد لبناء مفاهيم جديدة وإن يكن التشويش عليها أو عن طريق بث الشك في المسلّمات وغيرها، وبما أنَّ الدِّراسات الثقافية المتموضعة في إطار مدرسة برمينغهام، نحت نحو الاهتمام بالثقافة الدنيا/ الشعبية، حيثُ انصبَّ اهتمامها حول تأثير وسائل الإعلام على الجمهور "أصبحت الأبحاث المتعلقة بوسائل الإعلام والثقافة الشعبية من المحاور الرئيسة في النشاط المبكر لمركز الدِّراسات الثقافية المعاصرة بجامعة بيرمينغهام، الذي سرعان ما أدرج علم السيميولوجيا في دراسة وسائل الإعلام والثقافة الشعبية" (فاتن، (د.س)، صفحة 246).

تنبغي الإشارة إلى أنَّ وسائل الإعلام وتأثيراتها قد أخذت حيزاً كبيراً من اهتمام النقاد الغربيين وقد لوحظَ هذا الاهتمام من قبل رواد مدرسة فرانكفورت من حيثُ محاولة استيعابهم من يترجَّح منها - أي وسائل الإعلام - ومن يُسيطر عليها لخدمة أيديولوجيته، كما انتقد بورديو Pierre Bourdieu هذه الوسائل وخصَّ التلفاز وأثره في "تكريس الأوضاع والمصالح السائدة، وفي التفرغ السياسي والتلاعب بعقول المستهلكين من المشاهدين" (الحلوجي، 2004، صفحة 9)، هذا التلاعب تمثِّل في تحوُّله إلى قوَّة سياسية بالدرجة الأولى، وأيضاً العمل على تنميط الفكر وهذا ما عمل على دراسته ماركيزوز

وأطلق عليه الإنسان ذو البُعد الواحد ولكل ما ذكر في ما يخص وسائل الإعلام، وجد النقد الثقافي فيه أهم قضايا النقدية الجديدة بالتتابع والتحليل والاستقصاء من حيث تأثيرها القوي الملموس على المتلقي.

تتواشج دراسة الخطاب الإعلامي والنقد الثقافي، إذ يمكن لهذا الأخير الكشف عن المؤثرات اللغوية وغير اللغوية للفكر الجمعي، كما يمكنه تفحص مضامين التقارير الإعلامية وتفكيكها وإبراز مركز السلطة فيها وتأثيراتها، لأنها تحتوي على صور وخلفيات وثقافات وأفكار، كما يمكنه أيضاً دراسة الشفراء والرموز الإعلامية المبطنة ويكون ذلك عبر النص مهما كان نوعه" إذ تُستخدم هذه المنهجية بشكل رئيس في الإعلانات، لأنها وعلى الرغم من قصرها، يمكن أن تكون مُعقدة على هذا المستوى" (عمران، 2010، صفحة 196)، وبهذا فالنقد الثقافي يمكنه استخلاص مضامين أي جنس أدبي بدءاً بالصورة والعلامة وكذا الإشهار والخطاب والنص، ... وربطها بالواقع الإنساني.

لا يمكن إنكار التطور المذهل لوسائل الإعلام، المشهود على المستوى العالمي، والمتمثل وبخاصة الشبكة العنكبوتية، التي تُمثل بحق الهيمنة بعينها وبكافة أشكالها ما أنتج مصطلح العولمة، فهي "مفهوم استعماري جديد، يُمثل مرحلة أكثر تقدماً في مراحل النظام الرأسمالي الغربي يقوم على الهيمنة الاقتصادية والاستلاب الثقافي الحضاري للشعوب، وليست عولمة اقتصاد السوق الحر سوى قافلة تجري وراءها عولمة ثقافية، تتبع تلك الدول المعولمة، لتنتشر بقوة في أنحاء المعمورة بصفتها الثقافة الفضلى الواجب اتباعها، ... وقد وجهت العولمة الثقافية بحركات مناهضة أنتجت تمرّداً اجتماعياً كما هو الحال مع ما سُمي باليسار الجديد في أمريكا، والذي تبنّاه أصحاب الدراسات الثقافية وأشهرهم في ذلك ريموند ويليامز Raymond Williams في كتابه الثقافة والمجتمع" (الرباعي، 2015، صفحة 107).

II. خاتمة:

وخلاصة القول؛ إنّ النقد الثقافي وإن كان مظلة تجمع كل ما هو أدبي وثقافي وحياتي وفكري ظاهر ومُضمّر، نخبوي وشعبي، سياسي واجتماعي وأيديولوجي، وأيضاً وإن كانت بداياته سياسية محضة فإنه مع ذلك حقل معرفي واسع شامل يبحث في الجذور المعرفية لكل ما سبق، مستعيناً بكل ما له قدرة على إبراز هذه الجذور من نظريات ومناهج وآليات، وقد أسهم كل من ليتش والغدّامي في تحديد مفهومه بالرغم من اختلافهما في المنطلقات والوسائل؛ فإذا كان الأول قد ربطه بالمؤسسة المجتمعية، فإنّ الثاني قد جعل منه جسر عبور لنقد الثقافة العربية، أو إعادة قرائتها من جديد على أساس الأنساق المضمرّة المتحكّمة في النص الأدبي جذرياً، ومن النقاط المهمة التي تميّز النقد الثقافي ما يأتي:

- هو نقد معرفي تكاملي يبحث في الكيف ولماذا؟ ولمن؟ إذ طوّع كل من النقد الاجتماعي فالماركسية وآلياتها، التفكيكية والتأويل، كما أفاد من تحليل علم النفس والنسوية والاستشراق وما بعد الكولونيالية والخطاب الإعلامي.
- يهتم النقد الثقافي بمفاهيم لدراسة الخطابات، من مثل النسق، الهيمنة، اللاوعي الثقافي التشيؤ، السلطة والسيطرة، الآخر، الاستشراق.

مواكبة النقد الثقافي لكل ما هو جديد من خلال تسليط الضوء عليه، بدراسته وتحليله واستكناهه فحواه واستجلاء مضمونه.

قائمة المراجع

- حوار مباشر مأخوذ من قناة تلفزيونية بالإمارات. (بلا تاريخ). <http://bit.ly/ALEmarattvYt>.
- م. (2024). جريدة الوطن السعودية. <https://www.alwatan.com.sa/article/1104641>.
- الأسئلة المعترضة للنقد الثقافي. (08 05 2024). <https://www.alwatan.com.sa/article/1104641>.
- الغذامي. (01 05 1915). النذسق. <https://www.al-jazirah.com/cultur>. تاريخ الاسترداد 16 05 2024.
- الغذامي. (16 05 1915). النذسق. <https://www.al-jazirah.com/cultur>. تاريخ الاسترداد 01 05 2024.
- الغذامي عبد الله. (د.ت.). الخطبة والتكفير، من البنيوية إلى التشرحية (المجلد 4). القاهرة مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- باري هندس تر: ميرفت ياقوت. (2005). خطابات السلطة من هوبز إلى فوكو. القاهرة مصر: المجلس الأعلى للثقافة.
- بيبير بورديو: تر: درويش الحلوجي. (2004). التلفزيون والبيات والتلاعب بالعقول (المجلد 1). دمشق سورية: دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية.
- رينر إميح: تر: فاتن مرسى. (2005). النقد الأدبي واتجاهات التحليل النفسي في كتاب: ك. تلوولف، ك. نوريس، ح. أوزبورن. القاهرة مصر: المشروع القومي للترجمة.
- سارة جاميل: تر: هدى الصدة. (2002). النسوية وما بعد النسوية، (المجلد 1). القاهرة مصر: المجلس الأعلى للثقافة.
- ساردار، زيودين ولون، بورين فان: تر: وفاء عبد القادر. (2003). أقدام لك التراسات الثقافية. القاهرة مصر: المجلس الأعلى للثقافة.
- سايمون ديورينغ: تر: ممدوح عمران. (2010). التراسات الثقافية، مقدمة نقدية. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت.
- سعد الله احمد سالم. (بلا تاريخ). النقد الثقافي، أزمة منهج أم محنة عمل. <https://www.odabasham.net>.
- صحافة نت24 (بلا تاريخ). التفاعلية المباشرة هي الأصل الثقافي للبشرية [مسجل من قبل <https://m.sa24.co/article/16119007>].
- عبد الرحمن بن اسماعيل السماعي. (2008). الغذامي الناقد، قراءات في مشروع الغذامي النقدي، مجلة كتاب الرياض (97-98).
- عبد العزيز السبيل. (2001). الشعرنة بين السياسة والشعر. مجلة كتاب الرياض العربية السعودية، 10 (39).
- عبد القادر الرباعي. (2015). جماليات الخطاب في النقد الثقافي، رؤية جدلية جديدة، (المجلد 1). دار جرير للنشر والتوزيع.
- عبد الله الغذامي. (2003). الممارسة النقدية والثقافية، (المجلد 1). لبنان بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- عبد الله الغذامي. (2005). النقد الثقافي، قراءة في الأنساق العربية (المجلد 03). الدار البيضاء، المملكة المغربية: المركز الثقافي العربي، الدار.
- عبد الله الغذامي. (بلا تاريخ). الخطبة والتكفير، من البنيوية إلى التشرحية، (المجلد 4). القاهرة مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- عبد النبي اصطياف. (2004). نقد أدبي أم نقد ثقافي، حوارات القرن الجديد، بيروت لبنان: دار الفكر المعاصر.
- عصفور ديث كروزويل: تر: جابر. (1993). عصر البنيوية من ليفي ستراوس إلى فوكو. (المجلد 1). الكويت: دار سعاد الصباح، الكويت.
- علي الوردي. (1995). وعاء السلطين، (المجلد 2). بيروت لبنان: دار كوفان للنشر، توزيع دار الكنوز الأدبية.
- غوستاف يونغ: تر: نبيل محسن. (1997). جدلية الانا واللاوعي (المجلد 1). دمشق سورية: دار الحوار للنشر والتوزيع.
- فاطمة أحمد المزروعى. (2007). تمثيلات الآخر في أدب ما قبل الإسلام (المجلد 1). هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي. ع. م.
- فنست ليتش. (2000). النقد الأدبي الأمريكي من الثلاثينات إلى الثمانينات. (ماهر شفيق فريد، المترجمون) القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
- كئي، ياسين. (بلا تاريخ). في النقد الثقافي: الغذامي ينهى عن المنكر ويأتي مثله. ياسين كئي، دار ناشري للنشر الإلكتروني، <https://www.nashiri.net>.
- مرسى كريس ويدن: تر: فاتن. (د.س.). التراسات الثقافية، بحث في ك. تلوولف، ك. نوريس، ح. أوزبورن. القاهرة مصر: المشروع القومي للترجمة.
- ميجان الرويلي و سعد البازعي. (2002). دليل الناقد الأدبي (المجلد 3). المركز القومي العربي.
- نزار جبريل السعودي. (2017). تفاعل النقد الثقافي مع المناهج النقدية والمعارف المتعددة، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، 14.
- يوسف عليمت. (2009). التسق الثقافي، قراءة في أنساق الشعر العربي القديم (المجلد 1). إربد الأردن: عالم الكتب الحديث.